بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 16 يناير 2021

زيجمونت باومن:
بصدد نقد الأزمنة المعاصرة

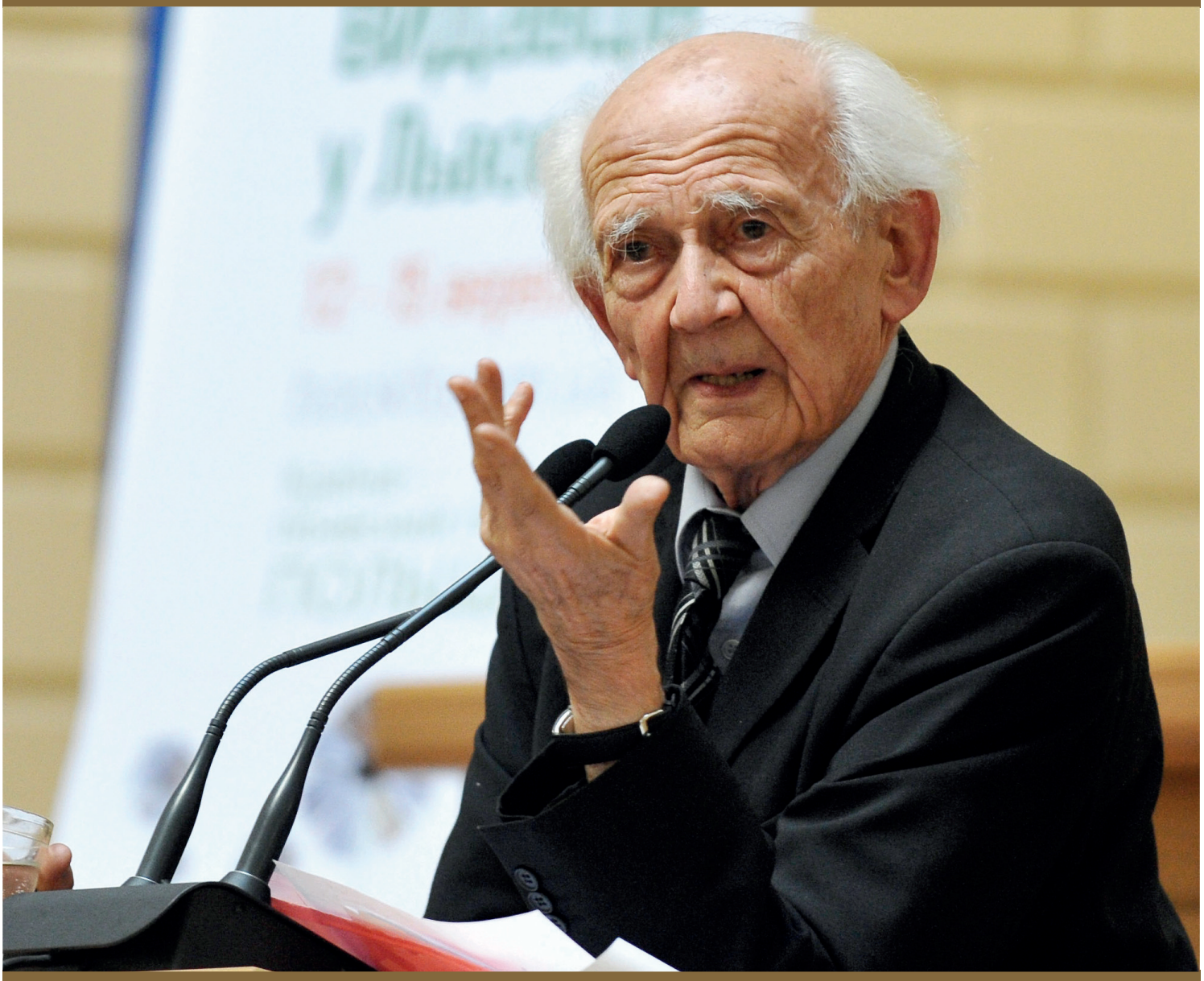

الحسين أخدوش
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2021
All rights reserved © 2021

استهلال عام

تتسم الأزمنة المعاصرة بكونها حالة حضارية مبنية على ثنائية الإنتاج والاستهلاك، وتتميز بفقدان الاستمرارية والثبات. وقد جعل التحوّل الدائم المقرون بغياب الإحساس بالسلام والطمأنينة هذه الأزمنة تتسم بسمة أساسية هي السيولة واللاتحدّد. ففي ظلّ ديمومة المؤقّت وغياب الإحساس بالأمن والطمأنة، يبدو أنّ الإشباع الفوري قد أصبح إستراتيجية مغرية ومعقولة لهذا الوضع البشري الهشّ، ومن ثمّ يكون أيّ شيء وقع في يد الإنسان إلاّ وتوجّب عليه استثماره واستنفاذه فورا، مادام لا أحد يعلم ما سيحدث غدا.

إنّها الأزمنة السائلة بالتوصيف الذي ارتآه لها «زيجمونت باومان»[1]، حيث قلق الحضارة، رغم تعاظم التجمعات البشرية المعاصرة وكبر حجمها، وبالرغم من كلّ ما تعجّ به الأمكنة من صخب وتجمهر البشر في المحطات المختلفة والساحات العامّة والملاعب والشواطئ، ورغم كلّ هذه الرفاهية الملحوظة، ظلّ هذا القلق متعاظمًا، بل وازداد الخوف وتمدّد ونما، متخذا أبعادا ثقافية وصحية خطيرة. فكيف يعالج هذا المفكّر الناقد للحداثة السائلة هذه الحالة الثقافية العامة التي تسم الأزمنة المعاصرة؟

يؤاخذ بعض الناس على العولمة كونها سرّعت من وثيرة استحكام النزوع الاستهلاكي، رغم ما لها من فوائد أخرى. لكن ارتكازها على اقتصاد المؤثّرات أفقد الحياة المعاصرة الثبات والاستقرار، حيث أصبح التحول الدائم في كلّ شيء مقرونا بالشعور بعدم الأمن والطمأنينة.[2] فقد غاب الإحساس بالأمن في ظل ديمومة هذا المؤقت، وبدا الإشباع الفوري طاغيا على الأذواق ممّا أفقد الحياة المعاصرة معناها الأصيل[3].

1- ولد زيجمونت باومان (Zygmunt Bauman) في بوزنان، بولندا عام 1925 لأبوين بولنديين، يهوديين. خدم باومن في الجيش البولندي الأول الذي كان بقيادة سوفيتية كمدرس في العلوم السياسة. شارك في معارك كولبرج (كولوبرزيج حاليًا) وبرلين. وخلال عمله في فيلق الأمن الداخلي، درس باومن بداية علم الاجتماع في أكاديميّة وارسو للعلوم الاجتماعية. ثم ترك علم الاجتماع ودرس الفلسفة في جامعة وارسو. وفي عام 1954م أصبح مُحاضرًا في جامعة وارسو، حيث استقر بها إلى عام 1968م. خلال تواجده في قسم الاقتصاد في جامعة لندن، وعندما كان روبيرت ماكينزي المشرف عليه، جهز بومان دراسته عن الحركة الاشتراكية البريطانية، التي أصبحت فيما بعد كتابه الأول في مجال تخصصه. نُشر الكتاب باللغة البولنديّة عام 1959م، وتمّ تنقيحه وترجمته إلى الإنجليزيّة في طبعة ظهرت عام 1972م. استمر باومن في نشر كتب أخرى، منها كتاب "علم الاجتماع للحياة اليومية" باللغة البولندية عام 1964م، والذي وصل إلى شريحة شعبيّة كبيرة في بولندا، والذي شكل لاحقًا أساسًا لمقرّر باللغة الإنجليزيّة "تفكير بشكل اجتماعي" عام 1990م. مبدئيًا، كان باومن قريباً من المذهب الماركسي الأرثوذكسي، ولكن كان أيضاً متأثراً بأنطونيو غرامشي وجورج زيمل، حيث عُرف بعد ذلك بشكل واسع بأنه ناقد للحكومة الشيوعية البولندية. ولهذا السبب، لم يحصل أبداً على لقب الأستاذ حتى بعد أن اكتمل تأهيله لهذا. لكن بعد أن أوجد معلمه السابق جوليان هوفيلد منصب نائب مدير اليونيسكو لقسم دراسات علوم الاجتماع في باريس عام 1962م، ورث بومان كرسي هوفيلد. في نهاية التسعينيات، كان باومن عاملاً مؤثراً في حركة مضادة للعولمة، أو وبشكل آخر تغيير العولمة. في مقابلة له عام 2011م مع مجلة بولندية "بوليتكا"، انتقد باومن إسرائيل بقوله إن إسرائيل لم تكن مهتمه إطلاقًا بالسلام، بل كانت تستخدم الهولوكوست كعذر لشرعنة أفعالها المتوحشة. توفي باومن في 9 يناير 2017 عن عمر يناهز اثنتي وتسعين سنة نشر باومن الكثير من الكتب والمقالات والدراسات، ومن أهم هذه الكتب ندكر ما يأتي: الحداثة والإبهام؛ الحداثة والهولوكوست؛ الحرية؛ الأخلاق في عصر الحداثة السائلة؛ حياة بلا روابط؛ عن الله والإنسان؛ سلسلة السيولة، وتتضمن ما يلي: الحداثة السائلة، الحياة السائلة، الحب السائل، الشر السائل، الخوف المسائل، المراقبة السائلة، الثقافة السائلة؛ إلخ.

2- زيجمونت باومن، الأزمنة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم ومراجعة هبة رؤوف عزت؛ الطبعة الأولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2017. ص 29

3- برنار نويل، الموجز في الإهانة، ترجمة محمد بنيس، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2017، ص 75

تأثّرت الأزمنة المعاصرة بهذا الشرط الثقافي أيّما تأثّر، حتى أصبح يستوجب كلّ ما في متناول اليد الاستثمار والاستهلاك فورا؛ إذ لا أحد يعلم ما سيحدث في الغد. فالواقع أنّ طفرة العولمة أدت إلى تذويب الفضاءات والقيم والعلاقات والعواطف، ومن ثم تسليعها في صيغ نسبية لا نهائية من المنقولات التي يسوّق لها اقتصاد المؤثّرات - المحرّك الأبرز لهذا النزوع. لذلك، المستهلكون غالبا ما يلتقون في فضاءات استهلاكية مختلفة، كقاعات الحفلات الموسيقية وقاعات المعارض والمنتجعات السياحية ومواقع الأنشطة الرياضية والمجمعات التجارية والمطاعم، إلاّ أنهم في الواقع لا يحققون أيّ تفاعل اجتماعي أو تواصلي حقيقي. في ظل استشراء هذا النزوع، أصبح كل شيء قابل للاستهلاك يقوّم بسعر الدولار التي هي العملة المعولمة بامتياز؛ غير أنّ نعم العولمة الرأسمالية سرعان ما تحوّلت إلى وبالٍ على من لا يحوز هذه العملة.[4]

لقد تسيّد اللايقين المشهد، وسكن الخوف العقول والقلوب معا، ولا شيء أمكن فعله باطمئنان في زمن تسيّد النيوليبرالية الأمريكية؛ فالكلّ تحت ضغط الخوف من المستقبل ما لم يوفّر الربح الدائم. وهكذا أصبح العيش، بين وفرة متنوعة وأساليب عيش مختلفة، دون ضمان موثوق، بل غدا محفوفا بالمخاطر، حيث يتطلب ثمنا سيكولوجيا باهظا. فكيف يقارب باومن هذه الحالة الثقافية ضمن تصوّره لسيولة الأزمنة المعاصرة؟

1. زيجمونت باومن: مسار مفكّر ناقد لـ«لأزمنة السائلة»

كانت أعمال المفكّر البولندي «زيجمونت باومان» في نهاية التسعينيات، عاملاً مؤثراً في حركة مضادة للعولمة، حيث بيّن حدود هذا التوجه الليبرالي، منبّها إلى انعكاساته السلبية المخالفة. وفي حوار له مع مجلة «بوليتيكا» البلوندية سنة2011م، انتقد باومن إسرائل التي تستخدم شمّاعة «الهولوكوست» ذريعة لشرعنة احتلالها للأراضي الفلسطينية. ولم يكن يخفي هذا الأخير ميوله الماركسية، حين يتعلّق الأمر بالتضامن العالمي ضد الاستغلال والهيمنة، فكان مفكّرا ملتزما بقضايا العصر، مناضلا ضد تسّيد الرأسمالية الليبرالية المتوحشة.

سلك هذا المفكّر في بداية تحليلاته للحداثة مسلك «سيكموند فرويد» الذي نظر للحداثة الغربية، باعتبارها نوعا من المقايضة، حيث قبلت المجتمعات الغربية بالتفريط بشيء من حريتها في مقابل الحصول على بعض الفوائد مثل الحماية الفرديّة. يتحدّث بومان عن الحداثة بوصفها شكلا «صلبا»، حيث حاولت أن تزيل خوف وتوجس الشخصية البشرية عن طريق التحكم بالثروات، وتطبيق السلالم الوظيفية، ووضع القوانين

4- Gilles Lipovetsky, Le Crépuscule du devoir; éd Gallimard, Paris, 1992, p.67

والتنظيمات، وذلك لتجنب الفوضوية التي تجعل الإنسان مضطرّا إلى الأمور التي تسهّل حياته بشكل مرتب ومنظم وسهل. لكن بومان نشر عدداً من الكتب التي كانت تتحدث عن أن وضع هذه القوانين والأنظمة وترتيب الحياة بهذا الشكل، لم تصل إلى النتيجة التي كان يطمح إليها الإنسان. ويزعم بومان أنه عندما تكون الحياة منظمة بشكل منطقي وواضح، سيكون هناك دائمًا مجموعات من المجتمع لا نستطيع أن نداريها أو نضبطها، ورغم ذلك تعتبر جزءا من المجتمع. في كتابه «الحداثة والازدواجية» وضع بومان تصوّره في الشخصية الإنسانية غير محدّدة الملامح، وقدّم بذلك فطرة الشخصيّة الاستعارية «الغريب».[5]

واعتماداً على دراسات «جورج زيميل»، وعلى ضوء كتابات الفيلسوف »جاك دريدا»، كتب بومان عن «الغريب»، باعتباره الشيء غير المألوف في المجتمع. وقد حاول في «الحداثة والازدواجية» أن يعطي عدداً من الاختلافات التي تحاول المجتمعات الحديثة تبنّيها تجاه الأمور الغريبة. ويعتقد أنّه في ظل اقتصاد موجّه للاستهلاك، يظلّ ما هو غريب مثيرا وجذابا دائما؛ ففي أنواع مختلفة من الأطعمة والأزياء المختلفة، وحتى في السياحة، فمن الممكن تجربة شعور الافتتان بغير المألوف. لكن يظل لهذه الغرابة جانب سلبي؛ فبسبب أنّ الغريب لا يمكن التحكم به، فإنّه يمتلك هذا الشعور بالخوف تجاه الشخص من الخارج (خارج نطاق مجتمعه) الذي يشعر باحتمالية أنه يتوعده ويهدده بشكل مستمر. أمّا كتاب «الحداثة والهولوكست»، فقد تناول بشكل مستفيض خطر الشعور بمثل هذه المخاوف. وانطلاقا من كتابات «حنّة آرنت» و«ثيدور أدورنو» عن الاستبداد والتنوير، اعتبر بومان أنّ مسألة الهولوكوست لا ينبغي أن تعتبر نوعا من الرجوع إلى بربرية ما قبل الحداثة؛ لأنّ لها علاقة وطيدة بالحداثة.

في تحليلاته لمسألة الهولوكست، أشار باومن إلى أنّ اليهود أصبحوا «غرباء» بشكل أكبر في أوروبا، فكانت النتيجة في ذلك كما صورها هو بسبب محاولات المجتمعات الأوروبية لتجاوز الطبيعة السيئة غير المريحة لهم، والتي هي في الأصل مزروعة في طباع اليهود كعنصر أساسي في طبيعتهم. يحاكي بومان في هذه القضية الفيلسوف «جورجيو آغامبين»، حين اعتبر أنّ آثار الهولوكوست ما زالت ظاهرة حتى الآن، ويتم استعمالها إلى اليوم في سياسيات معينة.[6] في أواخر التسعينيات، اتخذت كتب بومان منحى آخر، وبدأ يتحدث عن موضوعين منفصلين لكن تربطهما علاقة: الاستهلاك وما بعد الحداثة. يتحدث بومان عن تحول المجتمع في أواخر القرن 20 من مجتمع منتج إلى مجتمع مستهلك. خلال هذا التحول، وفيما يزعمه بومان، فقد ألغيت الحماية لأجل الاستمتاع بالحرية، وبخاصة حرية الاستهلاك والاستمتاع بالحياة. كتب بومان في كتبه النقدية لسيولة الأزمنة المعاصرة في تسعينيات القرن الماضي عن ظاهرة التحوّل من الحداثة إلى ما

5- زيجمونت باومن، الثقافة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، الطبعة الاولى، الشبكة العربية للأبحاث للنشر، بيروت، 2018، ص 34

6- زيجمونت باومن، الحداثة والهولوكست، ترجمة حجاج أبو جبر، الطبعة الأولى، دار مدارات للأبحاث والنشر، مصر، سنة 2014، ص 65

بعد الحداثة. ولقد حاول بومان تجنّب الغموض المحيط بمفهوم «ما بعد الحداثة»، مستخدما توصيف الحداثة السائلة في مقابل الحداثة الصلبة[7].

توقّف مؤلّف «الأزمنة السائلة»[8] في عدد من كتبه النقدية عند مفهوم «الحداثة السائلة»[9]، مبرزا أنّ التحولات الجوهرية التي لحقت حداثة عصر الأنوار، خلقت وضعا جديدا غير مسبوق في الأزمة المعاصرة التي تهددنا بها العولمة الاقتصادية الليبرالية.[10] بالنسبة إلى التحول الأول، فقد تمظهر في انتقال الحداثة من مرحلة «الصلابة» إلى مرحلة السيولة»؛ فالأشكال الاجتماعية، بمعنى الأبنية التي تحدد الاختيارات الفردية، والمؤسسات التي تضمن دوام العادات وأنماط السلوك المقبول، لم تعد قادرة (ولا أمل بأن تكون قادرة على الاحتفاظ بشكلها زمنا طويلا. إنها تتحلل وتنصهر بسرعة تفوق الزمن اللازم لتشكّلها، وليس من المتوقع أن تنعم تلك الأشكال القائمة أو المرتقبة بوقت كاف يساعدها على الانتقال إلى الحالة الصلبة، وليس بوسعها أن تصبح أطرا مرجعية لأفعال البشر والاستراتيجيات الاجتماعية طويلة المدى بسبب عمرها القصير؛ فعمرها أقصر من الزمن المطلوب لاستحداث استراتيجية متسقة ومتماسكة، بل وأقصر مما يتطلبه تحقيق «مشروع حياة».[11]

بينما تجلّى التحول الثاني في الانفصال والطلاق المعلق بين كل من السلطة والسياسة، وذلك بعدما كان يتوقع منهما، منذ نشأة الدولة الحديثة وحتى وقت قريب جدة، أن يعيشا معا تحت سقف الأمة الدولة «إلى أن يفرق الموت بينهما». ففي هذا الزمن، ينتقل جانب كبير من سلطة الدولة الحديثة بعيدة إلى الفضاء العولمي (خارج إطار الدولة).[12] وأما السياسة - بمعنى القدرة على تحديد اتجاهات الفعل وأهدافه- فليست قادرة على الفعل العالمي؛ فهي تظل سياسة محلية كما كانت من قبل. وهكذا، فإن غياب السيطرة السياسية يجعل القوى المتحررة الجديدة مصدرة لحالة عميقة ومستعصية من اللايقين. وأما غياب السلطة، فيقوض الصلة بين المؤسسات السياسية ومبادراتها ومشروعاتها من ناحية وما يعانيه مواطنو الأمة الدولة من مشكلات في حياتهم من ناحية أخرى، ولهذا السبب تتناقص قدرة المؤسسات السياسية للدولة على جذب اهتمام

7- زيجمونت باومن، الثقافة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، مرجع سابق، ص 45

8- زيجمونت باومن، الأزمنة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، الطبعة الأولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2017، ص 78

9- منذ بداية تسعينيات القرن الماضي، حاول بومان نشر العديد من الكتب التي تحدثت فيها عن العلاقة بين المفاهيم الآتية: الحداثة، البروقراطية، العقلانية والإقصاء الاجتماعي، إلخ.

10- توم جي بالمر، أخلاقية الرأسمالية، ترجمة محمد فتحي خضر، مراجعة محمد إبراهيم الجندي، منبر الحرية، القاهرة، ط الأولى، سنة 2013. ص 34

11- Dany Rober Dufour, L'individu qui vient après le libéralisme, collection Folio essais, édition Denoël, Paris, 2011, p.56

12- برنار نويل، الموجز في الاهانة، ترجمة محمد بنيس، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2017، ص 75

المواطنين.[13] يجبر هذا الوضع ويشجع أجهزة الدولة على ترك مهام متعددة كانت تضطلع بها في الماضي، أو على نقلها بعيدة لغيرها، أو كما يقول الساسة في هذا الزمن: «سأتخذ القرارات على أدنى مستوى محلي ممكن، وأسند المهام الأبنية أخرى ما دون الدولة».

وعليه، تحولت هذه المهام إلى ملعب ترتع فيه قوى السوق المعروفة بشدة تقلبها وسرعة تغيرها، أو تركت للمبادرات والاهتمامات الشخصية الخاصة، أو الاثنين معا.[14]

وتعلّق التحول الثالث بالانسحاب التدريجي الدائم للدور الاجتماعي للدول، وبالتالي تقليص الضمان الجماعي المدعوم من طرف الدولة ضد عجز الأفراد أو ضد المصائب، ممّا جرّد الفعل الجمعي من كثير من سحره السابق، وقوّض الأسس الاجتماعية للتضامن الاجتماعي. وهكذا، أصبح مفهوم «المجتمع» - من حيث هو رابطة كلية تجمع أهل البلد في أرض الدولة السيادية – مجرّد كلمة جوفاء إلى حد كبير؛ إذ تحوّلت الروابط الإنسانية الآمنة الجديرة باستثمار كبير ودائم للوقت والجهد، وأيضا الجديرة بالتضحية من أجلها بالمصالح الفردية المباشرة (أو ما يبدو مصالح فردية)، كلّها صارت هشّة ومؤقتة بكل تأكيد. فالمعاناة الفردية من الأخطار الصادرة عن تقلبات أسواق العمل والسلع تبعث على الانقسام وتعززه، ولا تبعث على الوحدة ولا تعزيزها، بل على قيمة المواقف التنافسية، وتحط من قيمة التعاون والعمل الجماعي، وتحولهما إلى مجرد حيل مؤقتة لا بد من تعليقها أو إنهائها بمجرد تحقيق المصلحة الفردية. ولذلك، صار «المجتمع»، إلى حد كبير أقرب إلى «الشبكة» منه إلى البنية»، (وبالطبع أقرب إلى الشبكة» منه إلى «رابطة كلية» صلبة)؛ صار أقرب إلى مصفوفة من اتصالات وانفصالات مشتتة، ومصفوفة من تغيرات لانهائية في جوهرها.[15]

لقد شمل التحول الرابع انهيار التفكير والتخطيط والفعل طويل الأجل، واختفاء أو إضعاف الأبنية الاجتماعية التي يمكن أن تترسخ فيها عمليات التفكير والتخطيط والفعل. وقد أفضى ذلك إلى تحول التاريخ السياسي وأنماط الحياة الفردية إلى سلسلة من مشروعات وحلقات قصيرة الأجل، وإلى مشروعات وحلقات لانهائية بالأساس من دون سلسلة مترابطة يمكن وصفها بدقة في إطار مفاهيم من قبيل «التطور» و«النضج»، و«التدرج الوظيفي»، و«التقدم» (وجميعها مفاهيم توحي بسلسلة مترابطة تتمتع بمسار محدد).[16] فالحياة المفككة للغاية تدفع إلى مسارات «أفقية» لا مسارات «رأسية»، وكل خطوة لا بد أن تكون استجابة لمجموعة مختلفة من الفرص، ومن ثم فهي تتطلب مجموعة مختلفة من المهارات وتدبيرا مختلفا لمصادر القوة.

13- زيجمونت باومن، الأزمنة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، مرجع سابق، ص 34
14- المرجع نفسه، ص 35
15- المرجع نفسه، ص 26
16- المرجع نفسه، ص 27

وهكذا، فإن نجاح الماضي لا يزيد بالضرورة احتمالية انتصارات المستقبل، ناهيك عن ضمانها، فلا بد من الاختبار الدائم للوسائل التي أثبتت نجاحها في الماضي، ولا بد من مراجعتها دائما، فربما يثبت أنها غير نافعة أو أنها تأتي بنتائج عكسية ما أن تتغير الظروف. وربما يحظى النسيان السريع التام للمعلومات القديمة والعادات البالية بأهمية في تحقيق النجاح تفوق كلا من استذكار الخطوات الماضية، وبناء الاستراتيجيات على أساس الخبرة الماضية.[17]

أمّا التحول الخامس، فمتعلق بمسؤولية حل المشكلات المعقدة التي أفرزتها ظروف دائمة التغير وشديدة التقلب؛ فهذه المسؤولية انتقلت إلى كاهل أفراد يتوقع منهم أن يكونوا «أحرارا في اختيارهم»، وأن يتحملوا تبعات اختيارهم كافة؛ فالمخاطر التي ينطوي عليها كل اختيار ربما تفرزها قوى تتجاوز فهم الفرد ومقدرته على الفعل، لكن الفرد هو الذي يدفع الثمن، فما من وصفات مضمونة تعين على اجتناب الأخطاء، إذا أتقن المرء تعلمها والتزم بها، وما من وصفات يمكن أن يلومها الفرد في حالة الفشل؛ فالفضيلة المشهود لها بخدمة مصلحة الفرد ليست «الامتثال» للقواعد (وهي نادرة، ومتناقضة غالبا)، بل «المرونة»؛ بمعنى الاستعداد لتغيير التكتيكات والأساليب بإشعار قصير، والاستعداد للتخلي عن الالتزامات والولاءات من دون ندم، واغتنام الفرص في حينها لا اتباع الأوليات الثابتة.[18]

يعرض باومن[19] الكيفية التي تغيّر بها هذه التحولات نطاق التحديات التي يواجهها الناس في حياتهم، ومن ثم الكيفية التي تؤثر بها في طريقة حياتهم، في كتابه «الأزمنة السائلة» بشكل تساؤلي موسّع. فالكتاب هو محاولة لمناقشة مشكلة تحوّل الحداثة الصلبة إلى حداثة سائلة. إنه إثارة للسؤال، وليس الإجابة عنه. يعتقد باومن أنّ الأثر العام للتحولات السابقة شمل مختلف مناحي الحياة المعاصرة، بما فيها تخطيط الأفعال وحساب المكاسب والخسائر وتقييم النتائج في الظروف الراهنة التي تتسم باللايقين وتسيّد الخوف. ولعل أهمية هذا الكتاب كامنة في محاولة مؤلّفه استكشاف أسباب هذا اللايقين، والكشف عن العوائق التي تحول دون فهم الأسباب الحقيقية لحالة السيولة التي تسم الأزمنة المعاصرة، بالإضافة إلى استطلاع امكانية التصدي (الفردي والجمعي) للتحديات التي تطرحها هذه الحالة الثقافية العامة، كيفية السيطرة عليها.

17- Jacques Testart, L'humanitude au pouvoir. Comment les citoyens peuvent décider du bien commun, Seuil, 2015, p.135

18- زيجمونت باومن، الأزمنة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، مرجع سابق، ص 27

19- زيجمونت باومن، الأزمنة السائلة، مرجع سابق، ص 56

2. الأزمنة السائلة: أو من الحداثة الصلبة إلى الحداثة السائلة

حاول المفكّر باومن في كتاب «الأزمنة السائلة» الاقتراب من وضعية إنسان الأزمنة الراهنة، حيث تحوّل عصر ما بعد الحداثة إلى عصر الخوف الوجودي، واستحكام اللايقين في العقول والنفوس. إنّه المنظور الجديد الذي تلاشت فيه السرديات الكبرى للحداثة الصلبة (الحداثة الكلاسيكية)، وتبددت وعودها بالتحرّر والتقدّم، إلخ. حصل ذلك نتيجة استحكام نزوع تقويض المرجعيات وفقدان المعنى وتفكيك المراكز بفعل قوة الصهر والإذابة التي تغذّيها النزعة الاستهلاكية المتطرّفة لليبرالية الجديدة، حيث أضحى الإنسان يتحرك على أرضية اللايقين والشك، تائها وخائفا من المستقبل.

من هذا المنطلق، طرح باومن مفهوم «السيولة» اصطلاحا تفسيريا، صاغه لوصف الحالة التي استحالت إليها هذه الثقافة المعاصرة الوارثة لأنوار العصر الحديث. ولمّا انعرجت الأزمنة المعاصرة ناحية عولمة نموذج الاستهلاك، أصبح إنسان هذه الأزمنة يعيش في حالة من الصيرورة الثابت الوحيد فيها هو التغير واليقين الوحيد فيها هو اللايقين. وهكذا، استبد بهذه الأزمنة، جراء ذلك، خوف كبير حدّ من الأسئلة الوجودية الكبرى، دافعا الناس إلى المزيد من الانغماس في الاستهلاك أملا في الخلاص عبر السلعة التي لا تعترف السيولة لها بأيّ مركز أو مرجعية مؤثّرة. جرّاء هذه الوضعية، انتقلت الثقافة المعاصرة إلى مرحلة متقدّمة للحداثة، وهي التي يسمّيها باومن بـ«الحداثة السائلة»، وهي التي تؤمن بأن ليس أمام الإنسان غير أن يقبل وضعه، باعتباره - الثقافي الجديد- كائنا زمانيا مكانيا محدودا بحدود الزمان والمكان، وبالتالي خاضعا للحتمية الطبيعية، وأن يكف عن الثرثرة عن العلم والتجاوز والقيم.

لقد جاءت الحداثة السائلة في أعمال باومن لتوصيف سردية جديدة، وتدور حول هوس الإنسان بأفكار الكمال والخلاص والنقاء، والوضوح التام في الحياة الدنيا لا في الآخرة، وقد انطوت هذه السردية التي تطمح إلى خلق فردوس أرضي على عواقب وخيمة في مراحل الحداثة المختلفة. إن اكتشاف قوانين الطبيعة لم يحقق سيادة الإنسان على الطبيعة وانتشار النور والحرية والمعرفة، بل أدى على النقيض من ذلك، إلى القهر وحتى الاستعباد والظلم. فمع مجيء الحداثة، بدا العالم بأسره أرضا لا صاحب لها، وكأنه فراغ يمكن تصميمه وتطويره على نحو مثالي من دون اعتبار العواقب.[20]

اختار باومن مفهوم «السيولة» توصيفا مجازيًا لوصف مرحلة متقدّمة من تاريخ الحداثة، أصبحت فيها القيم والمعاني تتلاشى في صيغ استهلاكية غير قابلة للتحديد. فالمواد السائلة، خلافا للمواد الصلبة، لا يمكن أن تحتفظ بأشكالها بسهولة، إذ الموائع من الأشياء التي لا تحتفظ بأيّ شكل من الأشكال لفترة طويلة، بل

20- زيجمونت باومن، الأزمنة السائلة، مرجع سابق، ص 98

دائما ما تكون ميالة إلى التغير والتبدل.[21] تكشف السيولة عن هشاشة الهويات والعلاقات الإنسانية وقابليتها للانكسار والتفتت. كما تشمل السيولة الفن والثقافة والعلاقات الإنسانية، وتهيمن عليها صورتان مجازيتان هما: الجنس والجسد. وينذر استخدام هاتين الصورتين المجازيتين برسم الواقع الإنساني الموسوم بتفتيت كل ما هو صلب وتذويبه، والتراجع عن السرديات الكبرى، والانغماس في الملذات الفردية.

تمكنت الحداثة من غرس أسسها الفلسفية في عوالم الوجود الإنساني كُلّها، بما في ذلك السياسة والمعرفة والفنّ، إلخ. إنّها سعي حثيث لنزع السحر عن العالم، بتعبير ماكس فيبر، وجعله شفافا قابلا للإدراك الإنساني عن طريق العقلانية والعلم. ولقد جسد التطلع إلى التغلب على العالم سعيا وراء تكثيف التقدم بوصفه حركة التاريخ إلى المستقبل ذات مؤشر إرشادي؛ فالعالم ليس إلا مادة أولية يمكن تطويعها وتطويرها على نحو مثالي. يرى باومن أنّ التخلص من الإبهام يعني في عالم السياسة فصل الغرباء، أو عزلهم، أو ترحيلهم، وفرض القيود على بعض القوى المحلية، ثمّ نزع الشرعية عن القوى التي لم تخضع للقيود. أما في المجال الفكري، فيعني التخلص من الإبهام، في المقام الأول، نزع الشرعية عن أسس المعرفة كلها، ما دامت لا تخضع للسيطرة الفلسفية، أو لا يمكن التحكم بها فلسفيا، والأهم من ذلك إدانة الإدراك العام وإبطاله، سواء كانت مجرد معتقدات أم تحيزات أم خرافات أم مجرد مظاهر.[22] لقد نصبت الحداثة الإنسان مركزا للطبيعة بدل الإله المتعالي، وقدمت نفسها على أنها اللحظة الفارقة في تاريخ الإنسانية التي بشر بها كلّ من «فيورباخ» و«ماركس». أسقط إنسان الأزمنة الحديثة صورة الإله على نفسه، فأدرك أنّه هو ذاته الإله؛ من هنا تحدّدت الحداثة السائلة كنزعة غنوصية آلت إلى تأليه الإنسان وتحقيق حلم الفردوس الأرضي.

وصف باومن الحداثة بأنّها احتكار للقوة والحقيقة والوجود في سياق ما يطلق عليه «موت الإله». لقد أزاحت الإله وأعلنت موته، لتقوض بذلك أقوى مرجعية كانت تقوم عليها الأخلاق، فتوارت العلاقات الإنسانية التراحمية، فاسحة المجال أمام العلاقات التعاقدية والقانونية. نصبت الحداثة آلهة علمانية تتجاوز الإنسان الفائق النيتشوي، لتشمل الطبيعة وقوانين التاريخ والعقل. بذلك، اكتسب الإله دلالات جديدة، تتجاوز الخلاف اللامرئي حول وجود الإله. فالعلمانية لم تطلب انسحاب الإله فقط، بل رفعت عن الجسد والطبيعة كلّ قدسية، فأحلّت محل المعاني الروحية مقولات غير شخصية، مثل: العقل وقوانين التاريخ والحتمية التاريخية إلخ.[23]

21- زيجمونت باومن، الحالة المستقلة، ترجمة حجاج أبو حجر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 2015، ص 2

22- حجاج أبو جبر، نقد العقل العلمي دراسة مقارنة الفكر سيكمونت باومن وعبدالوهاب المسيري، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، ديسمبر 2017، ص 98

23- المرجع نفسه، ص 133

لم تلغ الحداثة المقدس فقط، بل استولت عليه استيلاء عدائيا، وأحلت محله خدمة الأمة والدولة القطرية. فتغول الدولة القومية، جعل أهل التشريع والقانون يتحولون، في مرحلة ما بعد الحداثة، إلى أهل باطن وتأويل. لقد انسحب المثقفون في ظلّ طموحات الحداثة السائلة التي نزعت إلى فرض رؤية واحدة على العالم، فأضحت آراء المواطن العادي رائجة، ولم تعد الدولة السياسية تحتاج في مرحلة ما بعد الحداثة إلى تهيئة فكرية، بل تعتمد بدلا من ذلك، على الأساليب العقلانية للتوجيه والتحكم القائم على المراقبة وإغواء السوق.[24]

أفضى اللايقين الذي يسم المرحلة السائلة من الحداثة إلى انغماس الفرد في الاستهلاكية بأمل تجاوز حالة الخوف والتردد من المستقبل والالتذاذ باللحظة الراهنة، ممّا أدى إلى إفراز أناس متمركزين حول الجسد ومفتونين به، أفراد أدمنوا الصراع من أجل اللذة واللياقة (أطلق باومن على هذا المسعى الجهد الخاسر..). بات الاحتفاء بالجسد من سمات «العذر الدنيوي» في مرحلة السيولة، بعدما أصبح هذا الجسد الأنموذج، أو الصورة المجازية الكبرى للسعي الحثيث إلى تجاوز الغناء الفردي. وهكذا، أضحت معدلات الاستهلاك في النسق الاستهلاكي هي النقطة المرجعية التي يعتمدها الإنسان في الحكم على الأمور. إنّ غياب الذات المتعالية، إلهية كانت أو بشرية، يعني سطوة العبثية وغياب المطلق، ومن تم أصبح الجسد المرجعية الوحيدة التي تقود الاستهلاكية إلى تفكيك الإنسان.[25]

هكذا، تأسست الحداثة السائلة، حسب باومن، على الدعوة إلى تحطيم الدرع الواقي الذي تتشكل حدوده من المعتقدات التي سمحت للمواد الصلبة أن تقاوم الصهر والإذابة. لقد كان الهدف تنقية الساحة لظهور مواد صلبة جديدة معدلة واستبدال المنظومة المتوارثة للمواد الصلبة المعوية والناقصة بمنظومة أخرى تحظى بتعديل فائق. ويتمثل الهدف في بلوغ حالة من السيولة في جعل الشبكة المعقدة للعلاقات الاجتماعية بأسرها تتداعى وتنهار، قصيرة، عارية، ومكشوفة وعاجزة عن مقاومة قواعد الفعل والمعايير الليبرالية التي توحي بها المبادرات التجارية والصناعية الجديدة.[26]

انشغل باومن بوضع الإنسان الحديث، وحاول أن يستولي علاقته بالزمان والمكان في ظل الشرط الحداثي، ويشبه ذلك الوضع بالكتيب الذي تسوده الغربة والتشرد والتمزق. ويذهب باومن من خلال تتبعه للتحقق التاريخي لوعود الحداثة، أن الناس يلتقون في المدينة كمستوطنة بشرية كغرباء، ومعلوم أن لقاء الغرباء يفتقد الدفء الإنساني عكس لقاء الأقارب أو الأصدقاء أو المعارف. إن لقاء الغرباء بغض وجفاء،

24- المرجع نفسه، ص 97

25- رانر فونك، الأنا والنحن، التحليل النفسي لما بعد الحداثة، ترجمة حميد لشهب، الطبعة الأولى، نشرة جداول، بيروت، 2016، ص 76

26- زيجمونت باومن، مرجع سابق، ص 44

فالغرباء لا يستأنفون بالمرة موضوعات النقاش التي تطرقوا إليها في آخر لقاء لهم، ولا يشاركون أفراحهم وأتراحهم. إنهم يجتمعون وينصرفون من دون ذكريات [27].

يتجسد هذا الوضع بشكل جلّي في فضاءات بعينها، مثل فضاءات الاستهلاك التي يشبهها باومن بمعابد الاستهلاك، حيث تكتظّ بحشود لكنها حشود احتفالية وليست تعبدية. إنها أماكن تخلو من أي فعل جمعي؛ أي إنها تشجع على الفعل لا على التفاعل. لا يكشف معبد الاستهلاك شيئا من طبيعة الواقع اليومي، بل إنه يؤكد أنه فوق النقد والشك. تعزى قوة الجذب المغناطيسي التي تتمتع بها أماكن / معابد الاستهلاك إلى التنوع الحيوي المتجدد لمختلف اللذات الحسية التي يشعر بها المرء في مثل هذه الأماكن، فهي توفر ما لا يوفره «الواقع الحقيقي» خارجها، فهي توفر التوازن شبه التام بين الحرية والأمن.[28] والواقع أنّ الحداثة السائلة تتعامل مع الأفراد وفق استراتيجيتين: الأولى، هي الإقصاء؛ وهو عبارة عن تقيؤ الأغيار، ولفظهم بصفتهم غرباء وأجانب لا ينتمون إلى المكان بأي حال من الأحوال، فيحظر عليهم الاتصال الجسدي والحوار والتفاعل الاجتماعي وأشكال الاتصال كافة، ويتخذ ذللك شكل العزل المكاني في صورة الغيتو والمعسكرات. والثانية، الدمج؛ وهو عبارة عن احتواء المواد الغريبة، وذلك باستيعاب الأجسام والأرواح الغريبة وهضمها، كي تصير مماثلة للجسم الهاضم، أو إلى أن تزول الفوارق والاختلافات بين الهاضم والمهضوم، ويتخذ ذلك شكل الحروب الثقافية.

تسعى الاستراتيجية الأولى حسب باومن إلى إقصاء الأغيار أو إبادتهم، بينما تعنى الاستراتيجية الثانية بتعطيل عمرية الأخبار، أو محرّرها.[29] ويبرز تصور ثالث، وهو اللامكان الذي يلغي ذاتية الأفراد، أو يرتقي بها، ويجعلها هي والعدم سواء. إنّ اللامكان فضاء يخلو من السمات الرمزية التي تكشف عن الهوية، أو العلاقات، أو التاريخ، كالمطارات الجوية والطرق السريعة والغرف الفندقية. يرى باومن أن السعي إلى إقصاء الآخر والمختلف والغريب، والإصرار على اجتناب الحاجة إلى التواصل والحوار والالتزام المتبادل يمثل الاستحالة المسكنة للشك الوجودي الذي يضرب بجذوره في الهشاشة والسيولة التي تصيب العلاقات الاجتماعية في الزمن الحديث.[30] فالإقصاء وعدم القدرة على تصور الآخر، هو الدليل على الإصابة بالأمراض الاجتماعية المختلفة، التي عملت طفرة الحداثة السائلة على نفتها في المجتمعات المعاصرة. لقد عملت الأزمنة السائلة على تذويب الزمان والمكان والقيم والأشياء والعلاقات والعواطف (وتسليع كلّ

27- المرجع نفسه، ص 154
28- المرجع نفسه، ص 159
29- المرجع نفسه، ص 162
30- المرجع نفسه، ص 170

شيء تقريبا) في صيغ نسبية لا نهائية من سيول فاقدة لضوابط أخلاقية محدّدة، وللمعاني الأصيلة للحياة البشرية.

3. الخوف وأزمة اللايقين في ظلّ الأزمنة السائلة

توقّف ناقد الأزمنة السائلة في العديد من كتبه النقدية على هذه الظاهرة الثقافية، مبرزا أنّ أهم ما يسمها هو سيادة نوع من الخوف المستمر الناجم عن ديمومة المؤقت الذي يَسِمُ كلَّ مظاهر الحياة المعاصرة.[31] لقد استعمل لتحليل ومناقشة هذه الظاهرة توصيف «السيولة» بكيفية لا تحصر دلالة هذا المفهوم في مجرّد الحركة والتنقل، نتيجة تطور وسائل الاتصال والانتقال، وإنما لإفادة معنى ميوعة المشاعر والعلاقات والمعاني المقترنة بعدم التحديد الذي جعل زمننا الحالي يعرف فيضا من التحولات المختلفة التي قاسمها المشترك هو استهلاك كل شيء.

وفي كتابه «الخوف السائل»، اعتبر باومن أنّ البشر يعانون من القلق جراء سيادة اللايقين و«الخوف السائل» المتأتي من ثلاثة مصادر: من أجسادهم التي كتب عليها الموت والفناء، والتي لا يمكنها أن تعمل من دون ألم وقلق، باعتبارهما إشارتي تحذير، ومن العالم الخارجي الذي يمكن أن يصب جام غضبه عليهم بقواه لتدمير الكونية الساحقة، ومن علاقاتهم ببعضهم البعض. وتبقى المعاناة التي تأتي البشر من بعضهم البعض هي الأكثر إيلاما وقساوة.[32] ولعلّ من الأسباب الذاتية المبرّرة لهذا الشرّ، غريزة الخوف التي تعترينا ككائنات محدودة ومسكونة بهواجس الضعف. ونتيجة لهذه الهواجس، غدا الإنسان المعاصر يعتقد جازما أنّ الشر أصبح معطى تاريخيا لا يقهر، بل ينمو عبر تلك الفراغات التي يتركها جهلنا بحقيقة وضعنا البشري المحدود والمكبّل بحتميات مختلفة. وإزاء هذه الوضعية المقلقة، أصبح جهلنا بهشاشة وضعنا الحالي (أي عرضتنا الدائمة لنكون في خدمة الشر انطلاقا من قلقنا المستمر) عنصرا خطيرا يخصّب أبخرة الخوف التي تشكّل المنبع الخطير للشرور الوخيمة.[33]

يكشف هذا الواقع على أنّ الخوف متّصل بالشّر الملتصق بطبيعة الإنسان وبتاريخه، ويبدو مقدار هذا الشر الذي تسبب فيه إنسان الأزمنة الراهنة غير مسبوق، نوعا وحجما مقارنة بشرور الطبيعة المعروفة. إنّ خفوت تأنيب الضمير وانعدام الرحمة وتزايد الكراهية والرغبة الجامحة في إيذاء الآخرين، كل ذلك جعل

31- زيجمونت باومن، الأزمنة السائلة، مرجع سابق، ص 109
32- زيجمونت باومن، الخوف السائل، مرجع سابق، ص 107
33- زيجمونت باومن، الأزمنة السائلة، مرجع سابق، ص ص 30- 31

وضعنا البشري المعاصر هشا للغاية.[34] فلقد تمكّنت الحضارة الإنسانية الراهنة، لأولّ مرّة في التاريخ، من تطوير أسلحة الدمار الشامل، مستثمرة في ذلك خوف الناس والأمم من بعضها البعض. يسائل هذا الوضع حدود إمكانية مقاومة الشر المتأصل في الطبيعة البشرية، إلاّ أنّ إنسان الأزمنة المعاصر اعتقد جازما أن الشرّ معطي واقعي يمكن استثماره في تجارة مربحة للمال. وإزاء هذا الوضع، تتكشف خطورة الجهل الذي يسكن الإنسان المعاصر، أي عرضته الدائمة ليكون في خدمة الشر انطلاقا من خوفه الدائم الذي تحوّل ليصبح المحفّز الأكبر في الاستثمار في الحروب.[35] يبدو هذا الشرّ الذي تسبب فيه إنسان هذا الزمن غير متوقع ولا مسبوق، نوعا وحجما، مقارنة بشرور الطبيعة المعروفة، فتآكل الفطرة الأخلاقية، وخفوت تأنيب الضمير وانعدام الرحمة وتزايد الكراهية والرغبة الجامحة في إيذاء الآخرين؛ كلّ ذلك جعل الوضع البشري المعاصر هشّا للغاية.

حفزت هذه الوضعية الهشّة ظاهرة «الخوف السائل» بما لا تستطيع به الإنسانية الحالية إدارته ولا التحكم فيه.[36] والبين من خلال تقنيات استدامته واستثمار أسبابه للتربّح منه أنّ تخصيب عوامله هو ما يتمّ العمل عليه عبر مراكز بحثية، وذلك حتى يكون أداة فعالة لتنشيط تجارة السلاح للردع والتخويف الاستراتيجي. الواقع أنّ الظلم المتزايد في هذا العالم - المجسد لاختلال ميزان القوي فيه- لم يعد مجرّد أثر جانبي قابل للإصلاح في منظومة سليمة، وإنّما تحوّل إلى جزء متمّم لتصور زائف لسعادة حياة بشرية متوهّمة. إنه جزء متمم لاستراتيجية استلزمها التصور النفعي للخوف كمورد للربح؛ لذلك، فإن المشكلة العويصة التي غرسها منطق الاستثمار الربحي للخوف وعي المجتمعات المعاصرة هي أنّ الحروب يصعب اجتناب وقوعها ما دامت هذه الحياة المعاصرة ذاتها تدين في قدرتها الرهيبة والانتحارية لظاهرة الخوف المعولم.[37]

يستثمر التصوّر الاقتصادي الربحي للخوف لعض التصورات الحديثة لمشكلة الشّر بما هو محرّك عجلة التقدم، وأيضا من حيث هو خاصية إنسانية بامتياز (حنة ارندت).[38] لذلك، فإنّه كلما زاد عزْوُ المسؤولية عن الشّر إلى البشر، كلّما تعزّز الاعتقاد بأنهم ليسوا أهلا لتحملها، ومن ثم سوف يبقي هذا الإنسان من دون اتجاه، كما لن يكون بإمكانه العودة إلى الوصاية الفكرية كخيار استراتيجي لنمط عيشه المعاصر. يكمن الخطر من كلّ ذلك في أنّ آمال النضج قد غدت لاغية بالنسبة للنظرية السياسية الحديثة، حدث ذلك بفعل

34- سيكمونت باومن، الخوف السائل، مرجع سابق، ، ص 78

35- Gilles Lipovetsky, Le Crépuscule du devoir; éd Gallimard, Paris, 1992 ,p.89.

36- سيكمونت باومن، الخوف السائل، مرجع سابق، ص 85

37- المرجع نفسه، 135

38- Hannah Arendt, La crise de la culture; éd Gallimard, Paris, 1972, p.164.

تنسيب الاخلاق وتنصيب المنفعة قيمة مطلقة، وهذا ما عمليات سيادة النزوع الاستهلاكي المتطرّف الذي انخرط فيه الأسلوب المعاصرة في العيش[39].

الخوف والشرّ وجهين لعملة واحدة، إذ يستدعي التفكير في الواحد منهما التفكير في الآخر، من ثم فهما غير قابلين للتجاوز والتخطّي. ولعلّ هذا ما يفضي إلى مناقشة فكرة مخاطر العولمة والتي يأتي على رأسها الخوف من الانقراض الجماعي جراء أوبئة أو مصائب الحروب الكبرى. الخوف بهذا المعنى وليد النمط الحديث للعيش، وقد استثمرته ثقافيا واقتصاديا الرأسمالية المتوحشّة التي لا تبغي عن الربح عوضا، فجعلت من صناعته الية لتأميم الحروب ونشر الإحساس بالهلع والفزع لتحقيق المزيد من الأرباح.

لقد غدا الظلم المتزايد في عالم اليوم تجسيدا فعليا لاختلال ميزان القوى؛ وهو بذلك ليس فقط أثرا جانبيا قابلا للإصلاح في منظومة سليمة في جوهرها، بل جزء متمّم لتصوّر السعادة البشرية وللحياة المريحة. إنّه جزء متمّم للإستراتيجية التي يستلزمها هذا التصوّر ولا يمكن الاهتمام بالتصوّر والإستراتيجية وقبولهما إلاّ باعتبارهما امتيازات لا يمكن بسطها بكل وضوح، وتعميمها على البشرية. والمشكلة الوشيكة التي ما فتئ يعجّل بها المنطق الداخلي للحداثة المعاصرة (حروب كونية فضيعة) يصعب تجنّب وقوعها ما دامت الحياة المعاصرة نفسها تدين بقدرتها الرهيبة والانتحارية للسمات التي تستمدها منها عظمتها وروعتها.[40]

أصبح الخوف والشر وجهان لعملة واحدة، حيث يستدعي التفكير في الواحد منهما التفكير في الآخر، علاوة على ذلك أصبحا غير قابلين للتجاوز والتخطّي. يفضي هذا الموقف إلى مناقشة فكرة مخاطر العولمة، وأهوالها، عبر مساءلة الجوانب الشائكة للمخاطر الكبرى التي تتناسل وتجعل الخوف سائلا في ظلَ عالم تسوده العولمة، وتغدو فيه مصائب قوم عند قوم فوائد. إنّ الخوف والقلق بهذا المعنى جعلا الحياة لا تطاق بالنسبة للنفوس المتعبة والوجلة؛ وللأسف الشديد لم تعمل العولمة التكنولوجية إلاّ على تسريع صناعة الخوف بالترويج أكثر للحروب المختلفة، مستثمرة في حالة الإحساس بالهلع والفزع المعمّم وذلك لتحقيق المزيد من الأرباح وراء ذلك.[41]

نجمت هذه المسألة عن الطفرة النوعية التي تسجّلها سيطرة اقتصاد السوق البارع في إنتاج وإبداع المزيد من المستهلكين (الوجلين المفزوعين)، وذلك عبر استخدام آلة التسويق الضخمة والدعاية الكبيرة التي يستثير بها إحساسات وغرائز البشر. فـالتفكير في الخوف ضد الخوف أصبح مهمّة مستعجلة لأيّ نقد يروم

39- سيكمونت باومن، الخوف السائل، مرجع سابق، ص 125

40- المرجع نفسه، ص 165

41- سيكمونت باومن، الثقافة السائلة، ترجمة حجاج أبو حجر، الطبعة الأولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2018، ص 47-46

انتشال ثقافتنا المعاصرة من هوسها المرضي بتأمين الحياة ولو على حساب حياة الاخرين. ولعل الخطوة الواعدة للعلاج من هذا المرض تتمثل في الكشف عن الأسباب العميقة للخوف التي تضرب جدورها في جهلنا المركّب بالحقائق البسيطة لهذه الحياة الهشّة التي نعيشها على الأرض.[42]

في كتابه «المجتمع السائل»، أبرز باومن كيف أصبح المجتمع المعاصر – بوصفه مجتمعا مريضا - مسكونا بأوهام مرضية من صنع إنسان الأزمنة الراهنة.[43] إنّه مجتمع الطريدة والصيد حيث الجميع في بحث مستمر عن اصطياد الجميع للظفر بقدر كبير من الربح أو القُنْيَات غير المتوقعة؛ ولأنّه المجتمع السائل كذلك، فإنّ الكل مسكون بهاجس الخوف من المستقبل. لا ثقة في شيء، في الناس والمؤسّسات، وفي الحاضر والمستقبل. تبعا لهذا المعطى، يكثر الصيادون في المجتمع المعاصر لأن الجميع يعتقد أن خلاصه بين يديه. في ظلّ هذا الوضع باستطاعة المرء أن يكون صيادا وطريدة في الآن نفسه. إنّ مطاردة الآخرين الدائمة شرط للإحساس بجدوى البحث عن المنفعة، والدافع الأساس وراء ذلك تأمين سبل الحياة المرفّهة.[44]

تكمن مأساة هذه الوضعية في أنّ مجرّد التفكير في إمكانية الحدّ منها أصبح غير متاح، ففي ظلّ سيطرة نزوع الاستهلاك وسلطان اللذة يعد التراجع عن المنافسة أمرا مرعبا، لأنّه بمثابة إعلان النهاية بطعم الهزيمة. يشير باومن، [45] واصفا هذه الوضعية المزرية، إلى أنّه سيستمر نباح الكلاب في إحياء الذكرى العذبة لعمليات الصيد السابقة، وسيواصل الإنسان المعاصر مغامرة الصيد، وسأكون الوحيد الذي بقي بعيدا، على الهامش، غير مرغوب فيه، مستبعدا من مباهج الآخرين، ومتفرجا سلبيا يقف على الجانب الآخر من الحاجز؛ أشاهد الحفل دون أن يكون لي الحق في المشاركة والاستمتاع بالعرض ولو من بعيد.[46]

4. تجلّيات «اليوتوبيا» في عصر اللايقين

يعتبر باومن اليأس أمرا مخيفا، واللايقين يعني الخوف، لذلك لا عجب أن يحلم الناس مرارا وتكرارا، بعالم خالي من الحوادث، أي بعالم منتظم ومستقر يمكن التنبؤ به، وليس عالما تخفي وجهه الهادئ ضربات مفاجئة. ولو افترضنا أن بعض الفلاسفة كانوا على صواب، مثل «ليبنيتز»، عندما قالوا إن «العالم المثالي»

42- سيكمونت باومن، الخوف السائل، مرجع سابق، ص 175

43- Simon Tabet «Zygmunt Bauman et la société liquide»; Sciences Humaine magazine, num 254, décembre 2013.

44- Heinrich Geiselberger, L'âge de la régression; tr par Frédéric Joly, Jean-Marie Saint-Lu; éd Gallimard, éd Premier Parallèle, 2017, p..34

45- سيكمونت باومن، الخوف السائل، مرجع سابق، ص 134

46- نفسه، ص 115

نفسه لن يكون مثالية ما لم يوجد فيه شيء من الشر، فلا بد، على الأقل، حصر ذلك الشر في أماكن مغلقة مسيجة بشدة، ومرسومة بدقة، ومراقبة بعناية، ومحروسة بيقظة، حتى يستطيع المرء أن يميز الشر، ويعرف مكانه والزمن المحتمل لوقوعه، وأن يكون مستعدة للتعامل معه عند حدوثه. إننا نحلم بعالم موثوق، عالم يمكننا أن نثق به، عالم آمن.[47]

إنّ «اليوتوبيا» هي الاسم الذي أطلق بوجه عام، بفضل «توماس مور»، على تلك الأحلام منذ القرن السادس عشر الميلادي، منذ أن بدأت تتداعى النظم الرتيبة القديمة السرمدية في ظاهرها، ومنذ أن بدأت تشيخ العادات والأعراف، وبدأت تظهر الشعائر والطقوس فسادها، وساد العنف (أو هكذا كان الناس يميلون إلى تفسير انتشار المطالب والأفعال غير المعهودة، وهي مطالب وأفعال وجدت السلطة القديرة في نظر الناس آنذاك أنها بلغت من الضخامة والجموح ما يحول دون السيطرة عليها، ومن القدرة والمقاومة ما يجعلها عصية على الترويض بالطرق القديمة المعهودة). وما أن رسم «توماس مور» نموذجه التصوري لعالم خالي من التهديدات المفاجئة، حتى أخذ الارتجال والتجريب المحفوف بالمخاطر يتحولان بسرعة إلى الشغل الشاغل في ذلك الزمان.

كان «توماس مور» يعلم جيدا أن النموذج الذي وضعه إنما هو تصور الإطار الحياة السعيدة، وأن نموذجه الذي يصور عالما خاليا من فقدان الأمان والمخاوف الجامحة إنما هو مجرد حلم، ولذا فإنه سمي نموذجه التصوري «يوتوبيا» (utopia)، في إشارة ضمنية إلى كلمتين يونانيتين في آن معا: كلمة «eutopia) بمعنى «المكان السعيد»، و«outopia» بمعنى «اللامكان». وأما العدد الغفير الذي اتبع توماس مور وقلدوه، فكانوا أكثر عزما وتصميما، أو أقل حذرا واحتراسا؛ لقد عاشوا في عالم ينعم بالثقة، عن صواب أو خطأ، لحسن الحظ أو سوئه، وفي عالم يملك الحكمة المطلوبة لتصميم عالم أفضل خال من الخوف، وفي عالم يحظى بالفطنة اللازمة لرفع ما هو «كائن» غير معقول إلى ما «ينبغي» أن يكون كما أراد العقل؛ تلك الثقة منحتهم الشجاعة وروح المبادرة للبحث عن «المكان السعيد» في «اللامكان».[48]

وعلى مدار قرون تلت ذلك، كان على العالم أن يكون عالما متفائلا، عالما يعيش نحو اليوتوبيا، عالما يؤمن أن المجتمع من دون يوتوبيا إنما هو مجتمع لا يطاق العيش فيه، وأن الحياة من دون يوتوبيا ليست جديرة بالعيش؛ وإذا ارتاب المرء في هذا الكلام، فحسبه أن يعتمد على الثقات من ألمع العقول وأبرزها هنا وهناك. فهذا «أوسكار وايلد»، على سبيل المثال، يعتبر أنّه إذا خلت خريطة للعالم من اليوتوبيا، فهي ليست

47- سيكمونت باومن، الأزمنة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، مرجع سابق، ص 109

48- المرجع نفسه، ص 110

جديرة بمجرد نظرة سريعة عليها، ذلك لأنها تغفل البلد الوحيد الذي تنزل فيه الإنسانية دومة، وعندما تنزل الإنسانية في هذا البلد فإنها تنظر من الداخل إلى الخارج، وترى بلدة أفضل، وتبدأ الإبحار، فالتقدم هو تحقيق اليوتوبيات.[49]

لكن إذا تأملنا الماضي وتدبرناه، لربما نميل إلى تصحيح الجملة الأخيرة، وذلك لسببين؛ أولا، كان التقدم مطاردة لليوتوبيات لا تحقيقها، لقد كانت اليوتوبيات تلعب دور الأرنب الدمية، تطارده الكلاب المتسابقة بضراوة، لكنها لا تمسك به أبدا. ثانيا، كانت الحركة المسماة «التقدمه أقرب إلى محاولة للهرب من اليوتوبيات الفاشلة منها إلى محاولة للحاق باليوتوبيات غير المجربة؛ كانت هربا مما «لم يكن جيدة بالدرجة المتوقعة» أكثر من كونها هربا من «الجيد» إلى «الأفضل»؛ كانت محاولة تدفعها إحباطات الماضي لا نعيم المستقبل. الواقع الذي قيل إنه «تحقيق» لليوتوبيا كان غالبا يوجد في صور كاريكاتورية قبيحة من الأحلام لا فردوس الأحلام، فالسبب القوي لمعاودة «الإبحار» كان بغضا لما تحقق، لا جاذبية ما يمكن أن يتحقق. هناك رأي من رجل حكيم يتوافق تماما مع رأي «أوسكار وايلد»، وهو «أناتول فرانس» الذي اعتبر أنّه من دون يوتوبيات أزمنة أخرى، فإنّه لربما ظلّ الناس يعيشون في الكهوف حفاة عراة، ولذلك كان الحالمون باليوتوبيا هم من تتبعوا خطوط المدينة الأولى.[50]

اليوتوبيا حسب باومن هي أساس كل تقدم، والسبيل إلى مستقبل أفضل. ومن الواضح أن اليوتوبيات في زمن ميلاد «أناتول فرانس» قد استقرت تماما في الوعي العام واهتمامات الحياة اليومية، بالتالي فإن الوجود البشري من دون يوتوبيا لكان خارج طوق الفكر والخيال تماما. لقد بدا لـ «أناتول فرانس»، كما بدا لكثيرين من معاصريه، أن أهل الكهف أنفسهم كان عليهم أن يحلموا بيوتوبياتهم حتى يمكننا التوقف عن العيش في الكهوف، فأني لنا لولا ذلك أن نجوب الشوارع الباريسية العريضة التي خططها البارون «هاوسمان»؟ فلا يمكن تصور «مدينة أولى» ما لم تسبق «يوتوبيا المدينة» بناءها ! إننا نميل طوال الوقت إلى إسقاط طريقة حياتنا على غيرها من أنماط الحياة إذا أردنا أن نفهمها، وهكذا فإن الجيل الذي تعلم ونشأ على أن تسحبه اليوتوبيات غير المجربة، وأن تدفعه اليوتوبيات المشوهة، سيجد أن مثل هذا السؤال يبدو سؤالا بلاغية تماما، ولا يعدو أن يكون حشوة زائدة في حقيقته.[51]

ولكن، على النقيض من الرأي الذي عبر عنه «أناتول فرانس» وترسخ في الحس العام لمعاصريه، ولدت اليوتوبيا هي والحداثة معا، ولم تستطع أن تتنفس إلا في جو الحداثة. فاليوتوبيا في أصلها صورة

49- المرجع نفسه، ص 111
50- المرجع نفسه، ص 110
51- المرجع السابق، ص 112

لعالم آخر، عالم مختلف عن العالم الذي نعرفه أو نسمع عنه، كما أنها تستشرف عالمة تستحدثه بأسره حكمة البشر وتفانيهم. بيد أن الفكرة التي تقول إن البشر قادرون على استبدال العالم الكائن ليحلوا محله عالما جديدة مختلفة، عالمة من صنعهم بكل ما فيه، إنما هي فكرة كانت غائبة تماما تقريبا عن الفكر البشري قبل مجيء الأزمنة الحديثة.

لم يخضع التوالد الذاتي الرتيب الممل لأشكال الحياة ما قبل الحداثية إلا لتغيرات طفيفة للغاية يصعب ملاحظتها، فكان قليل الإلهام، بل أقل تشجيعا على التأمل العميق في أشكال بديلة للحياة البشرية في الأرض، إلا في صورة نهايات العالم أو يوم القيامة، وكلاهما من أصل إلهي. فحتى يمكن أخذ الخيال البشري إلى اللوحة التي رسمت عليها تخطيطات اليوتوبيات الباكرة كان لا بد من انهيار متسارع لمقدرة العالم البشري على التوالد الذاتي، وهو انهيار يعود إلى ميلاد العصر الحديث.

لقد استلزم الحلم اليوتوبي شرطين حين يولد؛ أولا، شعور غامر (وإن كان غامضا وصامتة) بأن العالم لا يعمل كما ينبغي، ومن غير المحتمل إصلاحه من دون إصلاح شامل. ثانيا، الثقة في المقدرة البشرية في اضطلاعها بتلك المهمة، والإيمان بمقولة «نحن البشر يمكننا أن نفعل ذلك»، مسلحين بالعقل الذي يمكن أن يستكشف الخلل الذي يعتري العالم، واكتشاف الأشياء التي لا بد من استخدامها في استبدال أجزائه التي أصابها الخلل، ناهيك عن القدرة على تشكيل الأدوات والأسلحة اللازمة لتطبيق تلك الخطط على أرض الواقع. خلاصة القول، كان لا بد من الثقة بأن الإدارة البشرية ستشكل العالم تشكيلا أكثر ملائمة لإشباع الحاجات البشرية، بغض النظر عما تكون عليه هذه الأشياء الآن، أو ما قد تصير إليه.

اعتبر باومن أنّه إذا كان الموقف ما قبل الحداثي تجاه العالم أشبه بموقف «حراس الصيد»، [52] فإن موقف «البستاني» هو الصورة المجازية الأمثل للرؤية الحديثة للعالم وممارستها. تتمثل المهمة الأساسية لحراس الصيد في الدفاع عن الأرض المطلوب حراستها ضد كافة أشكال التدخل البشري، من أجل الدفاع عن «توازنها الطبيعي» والحفاظ عليه، باعتباره تجسيدا لحكمة الله أو الطبيعة، فعليهم أن يكتشفوا على الفور الفخاخ التي ينصبها السارقون ومنتهكو حرمة الأرض، وتدمير تلك الفخاخ، ومنع الصيادين الغرباء غير الشرعيين من انتهاك الحدود والدخول غير المشروع، خشية أن يعرضوا إدامة «التوازن الطبيعي» للخطر. يقوم دور حراس الصيد على الاعتقاد بأن الأشياء تكون في أفضل حالها إذا تركت على حالها، وكان ذلك الدور في الزمن ما قبل الحداثي يقوم على الاعتقاد بأن العالم سلسلة وجود ربانية يجد فيها كل مخلوق مكانه

52- يستعمل باومن استعارة «حراس الصيد» باعتبارها صورة مجازية تشير إلى الدفاع المستميت ضد تدخل الإنسان ومحاولات انتهاك الخلق الإلهي المثالي أو إفساد ترتيبه ونظامه، فالبشر يرون نهاية التاريخ من منظور يوم الحساب وما يرتبط به من حوادث نهاية العالم. أنظر: سيكمونت باومن، الأزمنة السائلة، المرجع نفسه، 117

الحق النافع، حتى وإن كانت القدرات الذهنية البشرية محدودة إلى درجة تحول دون فهم الانسجام والتناسق والحكمة التي يتسم بها خلق الله.

وأما البستاني فليس كذلك، لأنّه يفترض أنّه لن يوجد نظام في العالم البتة لولا جهده ورعايته الدائمة، (أو على الأقل في الجزء الصغير من ذلك العالم الذي تحت وصايته). فالبستاني أكثر دراية بنوع النباتات التي ينبغي أن تنمو في الأرض التي يتعهدها ونوع النباتات التي لا ينبغي أن تنمو هناك، والبستاني يخطط التنظيم المرغوب في رأسه أولا، ثم يتأكد أن الصورة التي رسمها في ذهنه تصير واقعة في الأرض التي يتعهدها، إنه يفرض هذا التصور الذهني على الأرض بتشجيع نمو النوع السليم من النباتات واستئصال النباتات الأخرى من شأفتها وتدميرها (بعد أن صار اسمها الآن «حشائش»)، ذلك لأن وجودها غير المرغوب فيه وغير المرحب به لا يتوافق والانسجام الكلي لهذا التصور.[53]

يميل البستاني إلى أن يكون أفضل صانعي اليوتوبيا خبرة وبراعة؛ ففي صورة التناغم المثالي التي وضعها البستاني نموذجة تصورية في رأسه تنزل البساتين دوما»، باعتبارها نموذجا أصلية للطريقة التي تميل إلى أن تحل بها الإنسانية، كما يقول أوسكار وايلد، في البلد المسمى «يوتوبيا». فإذا سمع أحد في هذا الزمن عبارات من قبيل «زوال اليوتوبيا»، أو نهاية اليوتوبيا»، أو «اضمحلال الخيال اليوتوبي» - وهي عبارات تنتشر في النقاشات المعاصرة انتشارا كبيرا حتى إنها صارت تترسخ في الحس العام وتتحول إلى بديهيات - فإنما يرجع ذلك إلى أن موقف البستاني يتراجع في هذا الزمن ويفسح الطريق لـ «أهل الصيد».[54]

يختلف «أهل الصيد» عن «حراس الصيد» و«أهل البستنة» الذين هيمنوا على المشهد قبل أن يتولوا مقاليد الأمور؛ فهم لا يهتمون «بتوازن الأشياء»، سواء أكان توازنا «طبيعيا» أم «مرسوما»، فالمهمة الوحيدة التي يبتغيها أهل الصيد هي «فرائس جديدة»، وكبيرة بما يكفي لملأ حقائب الصيد عن آخرها؛ فأغلب الظن أنهم لن يروا أن من واجبهم التأكد من أن الصيد في الغابة سيعوض بعد عمليات الصيد التي يقومون بها (أو على الرغم من عمليات الصيد). فإذا ما أفرغت الغابات من الصيد بسبب مغامرات طائشة مربحة، ربما ينتقل أهل الصيد إلى برية بكر نسبية، مازالت تزخر بتذكار الصيد من جلود ورؤوس؛ وربما يخطر ببالهم أنه في وقت ما، في أجل بعيد غير مسمى، قد ينفد الكوكب من الغابات التي لم تستنزف بعد،

53- سيكمونت باومن، الأزمنة السائلة، مرجع سابق، ص 112

54- صورة مجازية تحيل على التحالف الذي نشأ بين الحكام (أهل البستنة والمفكرين (أهل التشريع) من أجل بناء حياة اجتماعية مكتفية بذاتها، ووضع المعايير والقواعد والضوابط المطلقة. وترمز صورة البستاني والمشرع إلى التدخل الفاعل للإنسان وإصرار الإرادة الإنسانية على تحقيق الفردوس الأرضي. أنظر: سيكمونت باومن، الأزمنة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، الطبعة الأولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2017، ص 118

ولكن إذا حدث ذلك، فإنهم لن يروا فيه تهديدا مباشرا، ولا تهديد لهم بالتأكيد، فتلك الاحتمالية البعيدة لن تهدد في نهاية المطاف نتائج الصيد الحالي ولا التالي، وما من شيء يضطرني، باعتباري صيادة واحدة بين عدد غفير من الصيادين، ولا يضطرنا، باعتبارنا جماعة واحدة بين جماعات غفيرة من الصيادين، لتدبر الأمر، ناهيك عن فعل شيء بشأنه.[55]

يعتبر باومن الأفراد في الأزمنة السائلة صيادون، أو يحكم عليهم أن نكون كذلك، وإلا واجهوا مصير الخروج من سباق الصيد إن لم نتحول أنفسنا إلى صيد للصائدين. فمتى نظرنا حولنا وجدنا على الأرجح صائدين فرادى آخرين مثلنا، أو صائدين في جماعات مثلما كنا نحاول أن نفعل أحيانا، وسنحتاج إلى أن نجتهد حق قبل أن نتمكن من العثور على بستاني وهو يتصور تناغما مرسوما مسبقا وراء سور بستانه الخاص، ثم يخرج ليحققه. وهذه الندرة النسبية لأهل البستنة، وهذا الانتشار المتزايد لأهل الصيد هو ما يناقشه علماء الاجتماع وفق مصطلح علمي يسمى «سيرورة النزعة الفردية». ولن نجد بالتأكيد لحراس صيد كثيرين ولا صيادين يؤمنون بمبادئ رؤية العالم التي يعتنقها حراس الصيد، وهذا هو السبب الرئيس الذي يفسر انزعاج الناس من أصحاب الضمير البيئي» وسعيهم الدؤوب لتنبيهنا بالخطر، (فالانقراض البطيء الأكيد لفلسفة حراس الصيد، وأفول فلسفة أهل البستنة، هو ما يمجده الساسة باسم «تحرير السوق»).[56] يؤكّد باومن أنّه من المنطقي، في عالم يسكنه صيادون في الغالب الأعم، ألا يوجد سوى مجال ضئيل، إن وجد أصلا، للتأملات اليوتوبية، ولن يوجد على الأرجح أناس كثيرون يتعاملون بجدة مع النماذج اليوتوبية بجدة، إذا ما عرضت عليهم للنظر فيها. ولو وجد أحد يعلم كيف يجعل العالم أفضل حالا، وأخذ على عاتقه مهمة تحسينه للأفضل بإخلاص، فإن السؤال المحير بحق سيكون كالتالي: من له سعة الحيلة والإرادة القوية الكافية ليفعل ما ينبغي فعله؟

لقد كان من المعتاد تخويل سعة الحيلة والإرادة الكافية للسلطة السيادية التي تمثلها الأمم / الدول، ولكن الأمم، كما لاحظ «جاك أتالي»، فقدت تأثيرها في مجرى الأمور، وتركت القوى العولمة كافة سبل إرشاد العالم إلى وجهة مستقرة، وكافة وسائل إعداد دفاع ضد كافة ألوان الخوف. لقد أخذت «قوى العولمة» كثيرة من السلطات السابقة للأمة الدولة، لكنها قلما تشتهر في هذا الزمن بغرائز «حراسة الصيد» أو «البستنة»، ولا فلسفاتها ولا استراتيجياتها، بل تحبذ الصيد والصيادين. إن «قاموس ظلال المعاني» لمؤلفه بيتر مارك روجت هو مرجع جامع لأهل الصيد، ومشهود له بحق لما يتضمن من تسجيل مخلص للتغيرات المتتالية التي طرأت على الاستخدام اللفظي، ويبدو أن له كل الحق في هذا الزمن بأن يضع صفة «يوتوبي» جنبا إلى

55- سيكمونت باومن، الأزمنة السائلة، ص 114

56- المرجع نفسه، ص 114

جنب مع صفات مثل «وهمي» ووهمي»، و«خيالي»، و«خادع»، و«مراوغ»، و«غير عملي»، و«غير واقعي»، وغير معقول»، و«غير عقلاني»؛ فهل نشهد حقا نهاية اليوتوبيا؟

لا يرى باومن ذلك ممكنا في عصر الأزمنة السائلة، حيث يخبر متصفحي الانترنت بأن «اليوتوبيا هي أحد أكبر الألعاب التفاعلية المجانية في العالم عبر الإنترنت»؛ ونجد هنا وهناك إشارات متفرقة إلى تاريخ الأفكار اليوتوبية، وإلى المراكز التي تقدم دورات في ذلك التاريخ، وتعتني في الغالب بعشاق التحف والآثار القديمة، وتعود أكثر الإشارات شيوعا إلى سير توماس مور نفسه، رائد اليوتوبيا، ولكن مثل تلك المواقع ليست سوى قلة قليلة.[57] ولقد اعتادت اليوتوبيا أن تشير إلى هدف بعيد مرغوب فيه للغاية، ينبغي أن يجمع الحالمين، وأن يخدم الحاجات البشرية على نحو أفضل؛ ولكن في الأحلام المعاصرة يبدو أن صورة «التقدم» قد انتقلت من خطاب «التحسين المشترك» إلى خطاب «البقاء الفردي». فلا يذكر الآن في سياق رغبة في الاندفاع إلى الأمام، بل في سياق محاولة يائسة للبقاء في السباق. فالوعي بالتقدم يبعث على اليقظة، ويدعو للحذر، فإذا سمعنا عن «تقدم الزمان»، ينتابنا قلق بأن نتخلف عن ركب السائرين، وبأن نسقط من مركبة تجري بسرعة متزايدة، وبأن لا نجد مكانا في الجولة التالية من لعبة الكراسي الموسيقية».[58]

لعلّ هذا التأكيد الجديد على نبذ الأشياء وتركها والتخلص منها بدلا من التأكيد على الاستفادة منها، يناسب تماما منطق اقتصادنا الاستهلاكي، فالمتمسكون بموضة قديمة من الملابس، وأجهزة الحاسوب، والهواتف النقالة، ومستحضرات التجميل، هم بمثابة كارثة على اقتصاد يتمثل اهتمامه الرئيس، وشرط بقائه الضروري، في طرح سريع متسارع للمبيعات والمشتريات في عالم النفايات، وفي هذا الاقتصاد يكون التخلص السريع من النفايات هو الصناعة المتقدمة. ويتحول الهروب في هذا الزمن إلى أشهر لعبة في المدينة، فالهروب من الوجهة الدلالية هو نقيض اليوتوبيا، ولكنه من الوجهة النفسية في هذا الزمن بديلها الوحيد المتاح، وربما يكون شكلها الجديد المحدث المتقدم، في هيئة جديدة تتلاءم مع المجتمع الاستهلاكي الذي يخضع لسيرورة النزعة الفردية وتحرير السوق. فلا أمل للمرء بتحويل العالم إلى مكان أفضل للعيش، بل لا أمل له بتأمين ذلك المكان الأفضل في العالم الذي نقشه لنفسه، فلن ينقشع عدم الأمن مهما حدث، بل إن «الحظ السعيد» يعني الإفلات من «الحظ السيئ».

إنّ الحلم بتخفيف رهبة اللايقين واستدامة السعادة بتغيير الأنا وحلم تغيير الأنا بتغيير أثوابها، هو «يوتوبيا أهل الصيد»، وهي نسخة من الرؤى القديمة للمجتمع الصالح تخضع لكل من تحرير السوق والخصخصة

57- سيكمونت باومن، الأزمنة السائلة، مرجع سابق، ص 116

58- ال مرجع نفسه، ص 115

وسيرورة النزعة الفردية، إنه مجتمع مضياف لإنسانية أعضائه. فالصيد مهمة تدوم طوال الوقت، وتستهلك كثيرة من الاهتمام والطاقة، ولا تدع مجالا لشيء آخر، وتصرف الانتباه عن لانهائية المهمة، وتؤجل لأجل غير مسمى لحظة التدبر التي لا بد في أثنائها من مواجهة امتناع المهمة. بيد أن المشكلة تتمثل في أن الصيد ما أن يجربه المرء حتى يتحول إلى إكراه وإدمان وهوس؛ فاصطياد الغنيمة سيعتبر نهاية مخيبة للآمال، إنه سيزيد من جاذبية جولة أخرى من الصيد ما دامت الآمال المصاحبة لفعل الصيد هي أمتع ما في الأمر، (وهل هي الشيء الوحيد الممتع؟) وهكذا، فإن اصطياد الغنيمة ينذر بنهاية لتلك الآمال، إلا إذا جرى التخطيط للصيد في الغد، وبدأ في صباح الغد.

فهل هذه هي نهاية اليوتوبيا ؟ نعم إنها نهاية اليوتوبيا إذا كنا نتحدث عن اليوتوبيات الحديثة الباكرة التي كانت تتصور نقطة تعطل الزمن، بل ونهاية للزمن بمعني نهاية التاريخ. ولكن لا وجود لتلك النقطة في حياة أهل الصيد، وما من لحظة يستطيع فيها المرء أن يقول إن المهمة قد اكتملت، وانتهى الأمر، وتحققت الرسالة، ومن ثم القدرة على النظر لكل ما هو آت في الحياة على أنه «عيش في سعادة غير مسبوقة، من الآن وإلى الأبد». أضف إلى ذلك أن احتمالية نهاية الصيد ليست جذابة، بل مخيفة في مجتمع أهل الصيد، فتلك النهاية قد لا تتحقق إلا في صورة هزيمة شخصية واستبعاد شخصي، وستواصل الأبواق إعلان النفير للبدء في مغامرة جديدة، وسيظل نباح كلاب الصيد إحياء للذكرى الحلوة التي شهدتها الصدامات الماضية، وسيظل أناس آخرون يذهبون للصيد، ولن توجد نهاية للإثارة الكونية ... وسأكون أنا الوحيد الذي يجري استبعاده، وإقصاؤه، ونبذه، وحرمانه من الابتهاج الذي ينعم به غيري؛ سأكون متفرجا سلبية على الجانب الآخر من السور، يشاهد الحفل، لكنه ممنوع من الانضمام إلى المحتفلين، أو عاجز عن الانضمام إليهم، ولا يستمتع بالمناظر ولا بالأصوات في أفضل الأحول إلا عن بغد وبالإنابة.[59]

فإذا كانت الحياة التي تتسم بالصيد المستمر الدائم هي يوتوبيا أخرى فإنها على العكس من يوتوبيات الماضي، يوتوبيا من دون نهاية؛ إنها يوتوبيا عجيبة حقة بالمقاييس المعهودة، فقد استمدت اليوتوبيات الأصلية قواها الجاذبة من وعدها بنهاية للكدح، وأما يوتوبيا أهل الصيد فهي حلم بكدح لا ينتهي أبدا. إنها يوتوبيا غريبة وغير معهودة، لكنها يوتوبيا مع ذلك كله تعد بالجائزة البعيدة المنال نفسها التي تلوح بها اليوتوبيات جميعها، إنها تعد بحل نهائي جذري للمشكلات البشرية في الماضي والحاضر والمستقبل، وبعلاج نهائي وجذري لأحزان الوضع الإنساني وأوجاعه؛ إنها يوتوبيا غير معهودة بالأساس، لأنها قد نقلت

59- سيكمونت باومن، الأزمنة السائلة، مرجع سابق، ص 116

أرض الحلول والعلاجات من بعيد» إلى «هنا والآن». فأهل الصيد لا يعيشون من أجل يوتوبيا، بل يتاح لهم فرصة العيش داخل يوتوبيا.[60]

كانت اليوتوبيا من منظور أهل البستنة هي نهاية الطريق، وأما أهل الصيد فوجدوا أنها الطريق نفسه، وتصور أهل البستنة نهاية الطريق على أنه تحقق اليوتوبيا وانتصارها النهائي، وأما أهل الصيد فوجدوا أن نهاية الطريق لا يمكن أن تكون إلا هزيمة نهائية مخزية لليوتوبيا المعيشة، والأدهى أنها ستكون هزيمة شخصية ودلية دامغة على الفشل الشخصي. فإمكانية توقف أهل الصيد عن صيدهم ضئيلة إن لم تكن منعدمة، ومن ثم فإن عدم المشاركة في الصيد المتواصل سيكون بمثابة عار الإقصاء الشخصي، وربما عار عدم الكفاية الشخصية.[61]

إن يوتوبيا أهل الصيد، على العكس من يوتوبيات الماضي، لا تقدم معنى للحياة، سواء أكان أصيلا أم زائفة؛ إنها تساعد فقط على استخلاص الأسئلة عن معنى الحياة من آراء الأحياء، لقد أعادت تشكيل مسار الحياة في سلسلة لانهائية من الهموم المتمركزة حول الذات، بحيث عاش كل حدث منفصل على أنه استهلال لما يليه، فلا تدع مجالا لتأمل الاتجاه وتدبره، وعندما يحدث ذلك (وإذا حدث في نهاية المطاف، في لحظة السقوط من الحياة الصائدة، أو الحرمان منها، عادة ما يكون الوقت متأخرة للغاية حتى يتمكن التدبر من إحداث أثر في الطريقة التي تتشكل بها الحياة، حياة المرء الخاصة وحياة الآخرين، ويكون الوقت متأخرة للغاية لمعارضة شكلها الراهن، والنقاش الحقيقي لمدى ملاءمته.[62]

يعتقد باومن أنّه من الصعب، بل ومن المحال، تلخيص هذه المسرحية غير المنتهية وغير المكتوبة، لاسيما أن عقدة الحبكة الدرامية مازالت تحتاج إلى حل، إنها مسرحية نلعب فيها جميعنا على خشبة المسرح، في آن معا، أو على فترات متقطعة، دور القطع الإضافية، وأدوات التمثيل، والممثلين الاحتياطيين. فسواء أكان العيش في مجتمع أهل الصيد يبدو مثل العيش في الجحيم أو لا يبدو، فهذه مسألة خلافية، ومعظم أهل الصيد الحاذقين سيخبرونك بأن كون المرء صيادا بين الصيادين له لحظات هادئة. لكن، ما لا خلاف عليه، في اعتقاد باومن، هو أن «كثيرين» سيقبلون على الاستراتيجية «السهلة للكثيرين»، ومن ثم يصبحون جزءا من الجحيم»، فلا يدهشهم منطقها العجيب، ولا تزعجهم شروطها العامة، والحتمية، والخيالية في

60- المرجع نفسه، ص 117
61- المرجع نفسه، 117
62- المرجع نفسه، ص 117

أغلب الأحيان. وما من شك بأن من يصارعون من أجل إيجاد «ما ليس بجحيم، ومن ليسوا بجحيم» لا بد أن يتعاملوا مع كافة الضغوط الدافعة لقبول ما يصرون على تسميته «جحيما».[63]

على سبيل الختم

تقوم الازمنة السائلة حسب باومن على نوع من الدعوة الأيديولوجية إلى تحطيم الدرع الواقي الذي تتشكل حدوده ومعدنه من مختلف المعتقدات والولاءات التي تسمح للمواد الصلبة أن تقاوم الذوبان. لذا، كان الهدف من استحكام نزوع الليبرالية الجديدة هو تطهير الساحة لظهور أشكال وأنماط جديدة معدلة، واستبدال بالمنظومة المتوارثة للمواد الصلبة منظومة أخرى تحظى بتعديل فائق بفعل سيول ثقافية غير محدّدة. تمثل نزوع الأزمنة السائلة في بلوغ حالة من الميوعة التي تمكن الالة الاستهلاكية من التنبؤ بحركة العالم، ومن ثم القدرة على قيادته وإدارته إلى المزيد من الاستهلاك غير المحدّد.

أفضى هذا النزوع إلى ترك الشبكة المعقدة للعلاقات الاجتماعية بأسرها تتداعى وتنهار بفعل حالة من السيولة العامة العاجزة عن مقاومة النزوع الاستهلاكي للآلة التجارية والصناعية والاستهلاكية للعولمة الليبرالية. وفي ظلّ هذه الأزمنة السائلة، تم إلقاء جميع الأشكال العامة والوحدات الثابتة والأنماط التي يقوم عليها الاعتماد والتفاعل المتبادل في بوتقة الصهر، حتى يمكن إعادة تشكيلها وصياغتها من جديد بما يخدم بعدي الانتاج والاستهلاك فقط. فالتنعم بالسلطة وبحرية التسوّق والجريان، كل ذلك يفترض أنّه لابد من أن يخلو العالم من السياجات والموانع والحدود ونقاط التفتيش، بالتالي تفتيت أي شبكة كثيفة ومتينة من الروابط الاجتماعية، ولاسيما الشبكة المتينة التي تضرب بجنورها في الثقافات الأصيلة. لقد مكّنت الأزمنة السائلة لحالة اللايقين وتسيّد الخوف وانهيار الثقافة الأصيلة للإنسان.

63- المرجع نفسه، ص 117

بيبليوغرافيا الورقة

المراجع باللغة العربية:

1. برنار نويل، الموجز في الاهانة، ترجمة محمد بنيس، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2017.
2. توم جي بالمر، أخلاقية الرأسمالية، ترجمة محمد فتحي خضر، مراجعة محمد إبراهيم الجندي، منبر الحرية، القاهرة، ط الأولى، سنة 2013.
3. رانر فونك، الأنا والنحن: التحليل النفسي لما بعد الحداثة، ترجمة حميد لشهب، الطبعة الأولى، نشرة جداول، بيروت، 2016.
4. ليزا بورتولوتي، السعادة والفلسفة، ترجمة أحمد الأنصاري، مراجعة حسن حنفي. المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2013.
5. سيكمونت باومن، الثقافة السائلة، ترجمة حجاج أبو حجر، الطبعة الأولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2018.
6. سيكمونت باومن، الأزمنة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم ومراجعة هبة رءوف عزت؛ الطبعة الأولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2017.
7. سيكمونت باومن، الخوف السائل؛ ترجمة حجّاج أبو جبر، تقديم هبة رءوف عزت؛ الطبعة الأولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، 2017.
8. سيكمونت باومن، الحداثة والهولوكست، ترجمة حجاج أبو جبر، الطبعة الأولى، دار مدارات للأبحاث والنشر، مصر، سنة 2014.
9. سيكمونت باومن، الحالة المستقلة، ترجمة حجاج أبو حجر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 2015.
10. حجاج أبو جبر، نقد العقل العلمي دراسة مقارنة الفكر سيكمونت باومن وعبدالوهاب المسيري، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، ديسمبر 2017.

المراجع باللغة الفرنسية:

1. Charline Zaitoun, «La science est-elle en crise?», dans le site web: https://lejournal.cnrs.fr/articles/la-science-est-elle-en crise? vu le 15.01.2019 dans le Journal CNRS. FR.
2. Dany Rober Dufour, L'individu qui vient après le libéralisme, collection Folio essais, édition Denoël, Paris, 2011.
3. Denis Gautier, Environnement, discours et pouvoir: L'approche Political ecology. Edition Quae, France, 2012.
4. Jacques Testart, L'humanitude au pouvoir. Comment les citoyens peuvent décider du bien commun, Seuil, 2015.
5. Hannah Arendt, La crise de la culture; éd Gallimard, Paris, 1972.

6. Heinrich Geiselberger: L'âge de la régression; tr par Frédéric Joly, Jean-Marie Saint-Lu ; éd Gallimard, éd Premier Parallèle, 2017.

7. Gilles Lipovetsky, Le Crépuscule du devoir; éd Gallimard, Paris, 1992.

8. Simon Tabet «Zygmunt Bauman et la société liquide»; Sciences Humaine magazine, num 254, décembre 2013.

9. Serres Michel, Le Contrat naturel, Paris, François Bourin, 1990.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2021

جميع الحقوق محفوظة © 2021